مُقَدِّمَة

رأيت أن أعرض فى هذا الكتاب كيف أن الله – تقدس اسمه – رأى بعد إرساله رسله إلى الناس بمعجزات حسية يؤيدهم بها أن يعدل عنها إلى معجزات معنوية عقلية تهديهم ببراهين فكرية سديدة إلى أن يؤمنوا بالله ووحدانيته وبملائكته ورسله واليوم الآخر. واختار لهذه الرسالة محمدا رسولا والقرآن معجزة تُتْلَى وتكتَب. ووفر للقرآن بلاغة باهرة مَنْ يستمع إليها أو يتلوها يعرف أنها تخرج عن طاقة البشر، فيؤمن بها إيمانا روحيًّا عميقا.

والفصل الأول فى الكتاب عن كبار الرسل وعرض معجزاتهم واخترت نوحا أقدم الرسل ومعجزته الطوفان الذى عمَّ ديار قومه، وإبراهيم ومعجزته النار التى ألقى فيها واستحالتها بردا وسلاما، ثم موسى ومعجزاته مثل عصاه السحرية التى تستحيل ثعبانا وتعود كما كانت، ويده التى ينزعها من جيبه فإذا هى بيضاء للناظرين وغيرها من معجزاته، ثم عيسى ومعجزاته الكثيرة من مثل كلامه فى المهد، ومثل إبرائه للأكمه المولود أعمى والأبرص وإحياء الموتى، كل ذلك بإذن الله.

وعرضت فى **الفصل الثانى** معجزة محمد: القرآن، وعقيدته تصحِّح عقائد أهل الكتب الإلهية والمؤمنين بالأوثان، وتُصْلح حياة الفرد وسلوكه وحياة الجماعات الإنسانية. وإعجازه إعجاز معنوى عقلى بين معجزات الرسل الحسية المادية، وتحدَّى الله به العرب مرارا وتكرارا أن يأتوا بمثله. وذكرتُ أسماءه وسوره وترتيبها والوقف فيها كما ذكرت فواصله التى تقوم من أواخر الآيات القرآنية مقام القوافى من الأبيات فى الشعر، وما تتصف به من تمكين وتصدير وتوشيح وإيضاح، مع مناسباتها لآياتها المحكمة.

وفى **الفصل الثالث** ذكرت بعض ما رآه الأسلاف من معجزاته وأولها القول بالصرفة أى صَرْف الله العرب عن الإتيان بمثله، وكان ذلك فى قدرتهم، وسلبها الله منهم. وهو وجه مردود لأن الله تحداهم فى القرآن مرارا أن يأتوا بمثله وعجزوا عجزا تاما. ووجه ثان من معجزاته هو إنباء القرآن الرسول وصحابته بالغيب مثل إنبائهم بانتصارهم على قريش فى غزوة بدر قبل وقوعها بثمانى سنوات، وكان الفرس الوثنيون انتصروا على الروم المسيحيين، وحزن لذلك المسلمون، فبشَّرهم الله أنهم بعد هزيمتهم سينتصرون على الفرس، وانتصروا عليهم بعد سبع سنوات. وكان الرسول رأى فى حلم أنه سيفتح مع الصحابة مكة، فبشرَّه الله بصدق رؤياه وفتحه لمكة مع صحابته. وفتحوها، إلى غير ذلك من بشارات.

وتحدثت فى **الفصل الرابع** عن معجزات قرآنية هى إضافات مهمة إلى قصص الرسل وشعوبهم لم تذكرها التوراة. من ذلك رسالة هود إلى قومه عاد فى إقليم الأحقاف باليمن. ومنها فى قصة آدم الحوار بين الله وملائكته فى أوائل سورة البقرة عن خلقه لآدم وذريته وتعليمه أسماء الموجودات وعصيانه لربه وطاعته لإبليس، وهبوطه من الجنة مع حواء إلى الأرض. ومنها فى قصة نوح عصيان ابن له عن ركوب السفينة للنجاة من الطوفان، فكان من المغرقين. ومنها فى قصة إبراهيم رحلته مع ابنه إسماعيل وأمه إلى جوار بئر زمزم بمكة. وفى إحدى زياراته له – حين كبر – بنيا الكعبة لعبادة الله وإقامة الحج بها سنويا. وتكثر الإضافات فى قصة يوسف وصححتُ ما دخل عليها من تحريفات فى التوراة، وأعدت إليها ما سقط من بعض المواقف والأحداث. وقصة موسى القرآنية كقصة يوسف فى التوراة إذ تكثر فيها التحريفات والإضافات مثلها، ويذكر القرآن لموسى تسع معجزات مجملة فى سورة الإسراء ومفصلة فى سورة الأعراف وقعت جميعها فى مصر وسيناء. وعرضتها فى الفصلين: الأول والرابع مع ما دخل على بعضها من تحريف فى التوراة. وسقطت منها قصة المؤمن فى

سورة غافر وموعظته لفرعون وملئه، وقصة امرأة فرعون فى سورة التحريم التى آمنت بموسى ودعت ربها أن يبنى لها بيتا فى الجنة.

وفى **الفصل الخامس** عرضت المعجزة العلمية للقرآن بادئا بتكوين الله العظيم للكون . وما نصل إلى القرن الخامس الهجرى حتى يأخذ بعض علمائنا فى التوسع فى العلوم التى تستنبط من القرآن فهم لا يقصرونها على علوم الدين، بل يجعلونها تشمل جميع العلوم غير الدينية، وأكبر من توسع فى ذلك الإمام الغزالى كما يتضح فى كتبه المختلفة، وخاصة فى كتابه "جواهر القرآن"، وفيه يقول: إن القرآن هو البحر المحيط الذى تنشعب منه علوم الأولين والآخِرين ويذكر العلوم الدينية ثم ما وراءها من غير الدينية مثل الطب والفلك وما يماثلهما من العلوم. وتبعه القاضى عياض فى كتابه الشفاء قائلا: "إن أحد وجوه إعجاز القرآن جمعه لعلوم ومعارف لم يعهدها العرب". وتبعهما فى ذلك بعض علماء مصر فى العصر الحديث. ومع أن الفخر الرازى المتوفى سنة ٦٠٦هـ /١٢١٠م كان ينكر نظرية الإعجاز العلمى فى القرآن عُنى فى تفسيره للقرآن المسمى مفاتيح الغيب بتفسيره تفسيرا علميا ناقلا فيه نُبَذاً واسعة من علم الفلك، ويصبح موسوعة ضخمة للعلوم والمعارف. ومثل الفخر الرازى فى هذا التوسع ابن أبى الفضل المرسى، ويضيف أصول صنائع وآلات لمجرد مجىء كلمة قرآنية تشير إلى عمل، فكلمة "بنَى" مثلا تشير إلى صناعة البناء إلى غير ذلك. ونلتقى – فى العصر الحديث – بالشيخ طنطاوى جوهرى (ت ١٩٤٠م) وتفسيره أهم كتب التفسير العلمى بعد تفسير الفخر الرازى ، وهو موسوعة ضخمة فى٢٥مجلدا مليئة–كما قال فى مقدمته–بعجائب الخلق وغرائب العلوم.

وفى الحق أن موسوعات التفسير العلمى تحجب معارفها الكثيرة التفسير الدقيق للقرآن وآياته. وحمل الشاطبى (ت ٩٧٠ هـ) حملة عنيفة عليه قائلا: "إن العرب كانوا أمة أمية، ولم يخوضوا فى شئ مما ادعاه أصحاب هذا التفسير". وهم قد أخطئوا – دون ريب – فى الربط بين حقائق العلوم وبين

الآيات القرآنية لأن حقائق القرآن ثابتة، بينما حقائق العلوم تتطور وتتغير من عصر إلى عصر.

ومن المؤكد أن القرآن حوَّل العرب من أمة جاهلة إلى أمة ذات علم ديني عظيم، كما حولها من أمة بدوية تموج بقبائل متنافرة إلى أمة مترابطة متحضرة، دستورها القرآن العظيم وما يأمر به من العبادات مثل الصلاة. وارتقى بسلوك أفرادها فجعله سلوكا خلقيا قويما، كما ارتقى بتعاونهم تعاونا اجتماعيا رشيدا، وفى أعلاه نظام الزكاة، وهو ركن أساسى فى الدين. وفرض للمرأة حقوقا لم تنعم بها فى أى دين، وأوجب العدل وبر الأبوين ، وحرَّم الزنا الآثم والربا وشرب الخمر، وجعل شريعة المسلم شريعة متحضرة إلى أقصى حد، تحترم دائما حرية الإنسان وتدعوه إلى السلم والسلام.

وقد تحدثت فى **الفصل السادس** عن المعجزة الحضارية. وكيف نقل الإسلام العرب من طور بداوة إلى طور حضارة عظيمة. فتحول فيه العرب من طور قبائل متنافرة إلى طور أمة متعاونة.. لها دولة دستورها القرآن وتشريعاته الربانية فى الأسرة ونسقها الإسلامى البارّ القويم. وفى الأمة الإسلامية ونسقها الاجتماعى الفريد القائم على الإخاء والمساواة فى الحقوق والواجبات. والتعاون فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، مع الاجتهاد العقلى والعدل التام فى التعامل ومع الرحمة بالإنسان والحيوان ومع الأخلاق الكريمة من مثل الوفاء والأمانة والصدق والحلم والعفاف والعمل الصالح.

وتحدثت فى **الفصل السابع** عن المعجزة البلاغية للقرآن، وبدأتها برأى الجاحظ: أن إعجازه يرجع إلى نظمه أى إلى حسن صياغاته وتراكيبه، وتنبه إلى أن اللفظ المرادف للفظ آخر لا يؤدى معناه بدقة، وضرب مثلا بلفظتى الجوع والسغب، وقال إن القرآن لا يستخدم الجوع إلا فى العقاب مثل : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ

ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ ﴾[1] والناس يستخدمونه كالسغب فى حال القدرة والسلامة. وتلاه الرمّانى فى القرن الرابع الهجرى، وله كتاب سماه النكت فى إعجاز القرآن وردّها إلى سبع جهات منها البلاغة ويقول إنها ثلاث طبقات: عُلْيا ووَسْطى ودنيا، والعليا: بلاغة القرآن، ويجعل للبلاغة عشرة أقسام وعاشرها حسن البيان وهو الإبانة عما فى النفس بعبارات بليغة. ويخلفه الباقلانى وينفى أن يكون إعجاز القرآن بما يعده البلاغيون من وجوه البلاغة ويرده إلى فكرة النظم عند الجاحظ. ويليه القاضى عبد الجبار فيقول إن إعجاز القرآن إنما هو فى فصاحته، وهى لا تظهر فى مفردات الكلام، وإنما بالضم على طريقة مخصوصة بالمواضعة وهى اختيار الكلمة وبالحركات التى تخص الإعراب، وبالتقدم والتأخر اللذين يختصان بالموقع. وبذلك وضع بين أيدينا أصول النظرية البلاغية لعبد القاهر فى كتابه "دلائل الإعجاز" ويجعل عبد الجبار ذلك من باب الفصاحة ويجعله عبد القاهر من باب النظم، ويعقد فى كتابه فصولا لما يحمل النظم من المعانى الإضافية فى التقديم والتأخير ومع الاستفهام بالهمزة والنفى ومع الخبر المثبت وفروقه فى صوره . ويخص الفصل والوصل بين الجمل بمبحث كبير يصور مواضع عطف الجمل ومواضع تركه والمجىء بها مستأنفة. ويعرض بعض دقائق بلاغية، منها استخدام «إن» مكان الفاء العاطفة، واستخدام كل فى حين النفى وتنكير الأسماء، ويتحدث عن الكناية وما سماه بالمجاز الحكمى وسماه البلاغيون بعده باسم المجاز العقلى، وعن ضروب الإسناد الخبرى، وعن القصر بما وإلا وبإنما والفروق بينهما، ويقول إن الحسن فى اللفظ كما فى الكناية والاستعارة وشقيقتها الاستعارة التمثيلية لا يدخل فى الإعجاز. ويسمى الفرق فى السرقات بين بيتين باسم الصورة وسميته قديما باسم

---

(١) سورة البقرة الآية ١٥٥ .

التحوير الفنى، ويقول: لابد لمن يريد أن يفهم دقائق الكلام ومحاسنه من ذوق يدرك به خصائص نظمه وأسراره البلاغية.

ويكتب فى العصر الحديث مصطفى صادق الرافعى كتابا عن إعجاز القرآن ويطيل فى مقدماته وبعد مائة وثلاثين صفحة يتحدث عن قضية الإعجاز، ويستهله بفصل عن أقوال الأسلاف عن الإعجاز، ويتبعه بفصل عن مؤلفاتهم فيه، وهو من القائلين بالإعجاز البلاغى وينوّه بأسلوب القرآن ووجوه تراكيبه ونسق حروفه وألفاظه ويشيد بما كتب فيه من مؤلفات فى أنواع البلاغة والبديع. والعرب فى عصره وبعد عصره إلى اليوم يضمونه إلى صدورهم وأفئدتهم لمعجزاته الباهرة.

القاهرة فى أول يولية سنة ٢٠٠٢م

شوقى ضيف